المفتي عبد القادر الراشدي القسنطيني: العالم، المجاهد والمفسر

الطالب: لزهاري تريكي
جامعة قسنطينة - 2 عبد الحميد مهري - الجزائر

الملخص:

عاش عبد القادر الراشدي القسنطيني في فترة الحكم العثماني للجزائر، وانتسب لعاصمة أكبر بايليك في الأيالة، فكان في إحدى مراحل حياته مفتي قسنطينة و قاضيها، فضلا على أنه أحد علمائها البارزين الذين كانت لهم مكانة عالية عند أصحاب الأمر فيها؛ فكان محل ثقتهم حتى أنهم جعلوه على أعلى الوظائف، و كلفوه بأجل المهام، بل فتحوا له أبواب قصورهم ليبث فيها علومه؛ التي منها علم تفسير القرآن الكريم، فبرع في هذا الفن من فنون العلوم الإسلامية، معتمدا في ذلك على منهج جمع فيه بين مدرستي الأثر و الرأي، و وقف ضد الجمود الفكري القائم على التقليد و المانع للتجديد، لذلك انفرد بآراء اصطدمت بطبيعة الكثير من توجهات علماء عصره.

و لم يكن الراشدي رجل دين و علم فقط، بل كان رجل جهاد و كفاح، فساهم في رد الغزو الأوربي على بلاده، حيث كان ضمن الجيش الذي قاده صالح باي لنصرة مدينة الجزائر المحروسة من الاعتداء الإسباني عام 1189هـ/1775م، و قد خلد أحداث المعركة التي شارك فيها في قصيدة من قصائده.

المنارة للاستشارات

إن هذا البحث يهدف إلى التعريف بشخصية عبد القادر الراشدي المفتي و القاضي و المفسر، كما أنه يتعرض للدور الرائد الذي لعبه علماء الجزائر في خدمة القرآن الكريم و تفسيره.

الكلمات المفتاحية: الراشدي، قسنطينة، المذهب الحنفي، العهد العثماني، صالح باي.

Abstract:

Abdul Kadir Erashidi Elconstantini lived in the era of Ottoman rule in Algeria, and joined a larger capital Bailek in Alyalh. He was in one of the junctures of his life the Mufti and judge of Constantine, as well as one of the leading scientists who had a high position in the eyes of its rulers. He had gained their confidence, so they appointed him on the top jobs, and assigned him to great tasks. Further and more importantly, they opened the doors of their palaces to him so that he could disseminate his sciences.

One of these important sciences was the interpretation of the Holy Qu-ran. Thus, he showed a peerless skill in this art of the Islamic Arts, through his reliance on a method that combines two schools: school of impact and school of opinion. It is also worth mentioning that he stood against the intellectual stagnation founded on imitation inhibition of any attempt for renovating. Accordingly, his views were met with criticism issued by lot of scholars of his time, who held conservative views and orientations. In fact, Erashidi was not merely a man of religion and science only, but he was a man of Holy War and struggle. He remarkably contributed to getting European invasions pushed back of his country. Hence, he took part in the army led by Salah Bey to defend the city of Algiers Elmahroussa from the Spanish attack in 1189 H / 1775 AD, and he memoralized the battle scenes in one of his poems.This research endeavors at introducing the figure of Abdul Kadir Erashidi; the Mufti, the judge and the Qu-ranic interpreter.

It equally shows to the chief role that Algeria scientists played through whatever sciences they had during the Ottoman Rule.

Keywords: Erashidi, Constantine, the doctrineHanafi, the Ottoman Rule,Salah Bey.

المنارة للاستشارات

تمهيد:

القرآن الكريم هو خير ما تبذل فيه الأوقات و تصرف في مدارسته الجهود، و لآلئ العلوم، و كيف لا يكون كذلك و هو كلام الله تعالى، الذي أنزله على خير الأنام و سيد الخلق، عبده و رسوله محمد صلى الله عليه و سلم، و تكفل بحفظه وحده دون سواه مصداقا لقوله تعالى:(**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**)[1].

و مما بذل و صرف فيه اهتمام علماء المسلمين سلفا و خلفا تفسيره، و استنباط أحكامه و هداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوما جمة و آفاقا رحبة، فهو كتاب علم و هداية، و منهاج تربية و حضارة، و من هؤلاء الذين اعتنوا بتفسيره من بلاد الجزائر خلال العهد العثماني؛ مفتي قسنطينة و قاضيها الشيخ عبد القادر الراشدي، فمن هو هذا العالم الجليل؟ و ما هي الجهود التي بذلها في تفسير القرآن العظيم؟

يهدف هذا العمل إلى التعريف بأحد أعلام أيالة الجزائر خلال العهد العثماني، و إبراز عناية علماء الجزائر بتفسير القرآن الكريم، و جهودهم المبذولة في سبيل تحقيق ذلك.

1 - نبذة تاريخية عن حياة الراشدي:

هو العلامة المحقق المجتهد الأصولي الكلامي، قرافي وقته، و عضد زمانه، الراشدي نسبة للرواشد مدشر من فرجيوة[2]، التابعة حاليا إداريا لولاية ميلة.

ترجم له تلميذه الحافظ محمد مرتضى الزبيدي فقال: عبد القادر بن محمد بن أحمد بن المبارك الحسني الراشدي الأثري القسنطيني، شيخنا الإمام المحدث الصوفي النظار، ولد بقسنطينة و قرأ على والده، و به تخرَّج، ثم ورد إلى تونس و الجزائر، و مكث بهما مدة، و أخذ عن علمائها و عاد إلى بلده فدرس و نفع الطلبة، و لم يزل على حاله حتى توفي في أوائل ذي الحجة عام 1194هـ[3].

المنارة للاستشارات

اختلف من تعرض لسيرة عبد القادر الراشدي في مذهبه، فهناك من ينسبه للمذهب المالكي و هناك من ينسبه للمذهب الحنفي،و قد يكون الراشدي من أولائك الذين غيروا مذهبهم[4]، كحال تلميذه محمد بن المسبح القسنطيني؛ الذي كان مالكي المذهب فحوله عثمان باي؛ أمير قسنطينة و واليها من قبل الداي العثماني، إلى المذهب الحنفي، و ولاه الخطابة بجامع سوق الغزل، و به كان يصلي الباي، و ولي قضاء الحنفية بقسنطينة مرات عديدة، و توفي عام 1242هـ[5].

و مما يدل على أن الراشدي كان يتبع المذهبين ما ورد في نفح الأزهار و في أم الحواضر في الماضي و الحاضر، أنه في عام 1190هـ/1776م، كان يشغل منصب مفتي الحنفية[6]، بينما ورد في وثيقة تحبيس بتاريخ أوائل شهر ربيع الأول عام 1188هـ/1774م، ما نصه:

"الحمد لله، هذه نسخة رسم نقل هنا للحاجة إليه نصه:

الحمد لله، حضر بالمحكمة الشرعية من قسنطينة المرعية بالله تعالى لدى الشيخ الإمام العالم العلامة الغني بشهرته عن التمييزو العلامة السيد عبد القادر الراشدي قاضي السادة المالكية بالبلد المزبور الواضع طابعه أعلاه دام عزه و علاه..."[7].

تولى عبد القادر الراشدي قضاء قسنطينة و فتواها مرارا[8]، و من ذلك القضاء المالكي و الافتاء، بالإضافة إلى مهنة التدريس و غير ذلك من الوظائف[9]، كما كان ضمن اللجنة التي شكلها صالح باي عام 1190هـ/1776م، و استعان بها على تنظيم الأوقاف،و توسيع نطاق الحركة العلمية؛ و ضمت من المشايخ بالإضافة إلى عبد القادر الراشدي مفتي الحنفية آنذاك، شعبان بن جلول قاضي الحنفية، و الشيخ العباسي قاضي المالكية، و جمع عملهم في سجل خاص بالأوقاف المذكورة[10]، و جعل منه أربع نسخ، وضعت إحداها عند أمين بيت المال، و الثانية عند شيخ البلد، و الثالثة عند القاضي الحنفي، والرابعة عند القاضي المالكي[11].

المنارة للاستشارات

كان الراشدي بالإضافة إلى ما تقدم رجل كفاح و جهاد، فقد انضم إلى صفوف الجيش الذي هب من قسنطينة لنصرة المدافعين عن مدينة الجزائر المحروسة من الاعتداء الإسباني الذي تعرضت له[12]، حيث ما إن ارتفع النداء إلى الجهاد، و انتشر الخبر عبر كامل الأيالة، حتى جمع صالح باي بسرعة ما أمكن جمعه من جنود نظامية و غير نظامية، و انطلق مشيا على الأقدام مع جنوده إلى أن وصل قرب مدينة الجزائر، ثم تمركز في مكان بين الحراش و الحميز، و كان معسكره يضم أكثر من عشرين ألف فارس، علاوة على الجِمَالو الحيوانات الأخرى المحملة بالأمتعة[13]، و ما لبثوا أن وقعت أثناء ذلك معركة في صيف عام 1189هـ/1775م، و من بين أحداثها تقديم صالح باي الجمال الموجودة في معسكره، و جعلها صفا واحدا أمام الجنود المسلمين لتقيهم و تحميهم من ضربات الإسبان، و تم دفع الجمال منتظمة و مصطفة إلى الحباك التي استعملها الإسبان كأسوار، و كان صالح باي شخصيا هو الذي يسير الحركة، و السيف بيده، كما أنه كان يحرض جنوده على القتال، ثم تبعه الرؤساء الآخرون، و اقتفوا أثره إلى أن بلغوا الخنادق، ثم صوبوا نحو الإسبان وابل من الطلقات النارية، حتى أمرهم قائدهم بالانسحاب بعد أن أقتنع باستحالة تمديد المقاومة[14]، و انتهت المواجهة بانتصار الجزائريين، فخلَّد عبد القادر الراشدي ذكراها في قصيدة أشاد فيها بداي الجزائر و ببطولات المجاهدين و بحنكة صالح باي، و مما جاء فيها ما يلي:

حَوَادِيثُ الدَّهْرِ تَتْلَى كُلّ مَا ظَهَرَت فَنِعْمَ مَنْ قَدْ أَعَدَّ الحَزْمَتَأْوِيلًا
كَمَا أَعَدَّ سَدِيدُ الرَّأْيَ سُلْطَانُـنَا مُحَمَّدُ بَاشَا نَالَ النَّصْرَ تَبْجِيلًا
بَاشَا الجَزَائِرَ مَنْ عَمَّتْ فَوَاضِلَهُ كَلًّا فَمَنْ جَاءَهُ أَعْطَاهُ تَامِيلًا
لَمَّا أَتَى الفَنَشُ وَ إِلَى اللهِ خَزِيَّتُهُ أَتَاهُ يُؤْتِي العِزَّ بِالجُنْدِ يُؤْتِي العِزَّ تَدْلِيلًا
فَمِنْهُ مِنْ حُسْنِهِ بِهِ تَولَّى حَسَنًاأَحْسَنَ رَبٌّ إِلَيْهِ حِينَ مَا حِيلَا

المنارة للاستشارات

وَ مِنْهُ مَنْ قَدْ أَعْلَى فَمَا تَوَلَّى عَلِيّاً عْلَاهُ مَوْلَاهُ فَوْقَ الرَّأْسِ إِكْلِيلًا
وَ مِنْهُ مَنْ قَدْ صَفَا بِمَا صَفَا مُصْطَفَىوَ مِنْهُ مَنْ قَدْ جَلَا بِغَيْرِ مَنْ قِيلَا
وَ أَوْلَى مَنْ أَدَّيْتَ بِاللّٰهِ نُصْرَتَـهُجُنْدُ الْمُؤَيّدِ تَامِيلًا وَ تَفْصِيلًا
مَلَاذَنَا صَالِحُ أَصْلَحَ رَبٌّ بِـهِجِنْسَ البَرِيَّةِ تَكْبِيرًا وَ تَفْضِيلًا[15]

2 – آثاره:

للشيخ عبد القادر الراشدي عدة مؤلفات، جلها إن لم نقل كلها منها ما هو إما مخطوطأو ضائع، و من ذلك:

- "كتاب حافل في مباحث الاجتهاد.
- حاشية محشوة بالتحقيق و الاتقان على شرح السيد للمواقف العضدية.
- تأليف صغير الحجم تعرض فيه لكثير من عائلات قسنطينة و قبائلها، و بيان الشريف منهم و العربي و البربري"[16]، و هو كتاب مخطوط فيه 55 صفحة، كل صفحة فيها ما بين 20 و 21 سطرا، افتتحه بمايلي:

"بسم اللّٰه الرحمن الرحيم، و صلى اللّٰه على سيدنا محمد و سلم.

هذا كتاب المحققين المسمى بعقد الآلي المستضيئة لنفي ظلام التلبيس.

الحمد للّٰه ما وجد بخط شيخ الجماعة بحاضرة قسنطينة في وقته، الشيخ عبد القادر الراشدي رحمه اللّٰه تعالى و رضي عنه آمين: سيدنا علي بن أبي طالب رضي اللّٰه تعالى عنه و كرم وجهه، ترك جماعة من الأولاد منهم محمد بن الحنفية..."[17].

- "قصيدة في غاية البلاغة في مدح النبي صلى اللّٰه عليه و سلم.
- رسالة في تحريم الدخان.
- رسالة في وزن الأعمال تعرض فيها لمباحث علم الكلام.
- قصيدة شرحها في الرد على أضداده في قضية المتشابه؛ مطلعها:

المنارة للاستشارات

خَبِّرَا عَنِّي المُؤَوِّلَ أَنِّي كَافِرٌ بِالَّذِي قَضَتْهُ الْعُقُولُ
مَا قَضَتْهُ العُقُولُ لَيْسَ مِنَ الدِّينِ إِنَّمَا الدِّينُ مَا حَوَتْهُ النُّقُولُ"[18].

- كتاب يسمى متسعة الميدان في اثبات وجه الوزن و آلته الميزان، تعرض فيه إلى المتشابه في الاعتقادات، و قد رجح فيه مذهب السلف على غيره، ثم ألحق به فوائد غزيرة تتعلق بالمتشابه من المعاملات، و مما جاء فيه:

"و بعد: فيقول القاضي بقسنطينة برد الله ثراه و طيب طينه، و هو الراجي عفو القادر الراشدي عبد القادر، بعد أن كنت وضعت رسالة في جواز الأعمال، بدا لي أن أزيد في الكلام زيادات تبلغ الآمال، تحريرا لما به تعم بلوى الاعتقاد، و تقريرا لما به ترد دعوى الاعتياد، و إرادة رغم أنف المعاندين، و إشادة حتم حتف الجاحدين، أن حملهم على ما هم فيه شدة الحسد، و قلة نفاق ما بسوقهم من الكسد، و ما دَرَوا أن اعتراضهم إنما هو على رب الناس، لأنه قاسم ما بينهم من خير أو من بأس، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، أخذهم عز وجل بما كانوا يفعلون، فجاءت رسالة يضطر إليها كل مقرئ و طالب، لاختصاصها بما أودع فيها من الخير و المطالب، قد زادت فوائدها على ما كنا أول الشبيبة شرحنا به سادسة عقائد السنوسي فضاع"[19].

- "و له أيضا رسالة في التوحيد، و أخرى في حكم من جرى حلفه بالحرام ليفعلن فلم يفعل، رد فيها على بعض أهل عصره تقع في ست صفحات.
- رسالة في التعليق على العلامة سعد الدين التفتزاني في شرح مقاصده في أفعال العباد"[20]، و له غير ذلك مما سيأتي ذكر بعضه عند الحديث عن تفسير عبد القادر الراشدي للقرآن الكريم.

المنارة للاستشارات

3 – ميزات عصره:

ينسب عبد القادر الراشدي لمدينة قسنطينة؛ التي كانت قاعدة من قواعد أيالة الجزائر التابعة للحكم العثماني منذ عام 1519م، يحكمها نائب عن حاكم البلاد يطلق عليه لقب "الباي"، و هي مدينة قوية ليست كبيرة جدا و لا صغيرة أيضا، و عليها سور كبير و فيها أبواب ثلاثة؛ باب الوادي و باب الجابية و باب القنطرة، و بويب صغير يخرج منه الآدمي، و فيها أسواق كثيرة و دكاكين طيبة و مساجد للجمعة نحو الخمسة، و بعضها في غاية الاتقان، و كان في المدينة آنذاك قصبة عظيمة و عسكر من الترك بقدر حالها، و باي سطوته عظيمة و عساكره كثيرة، تنفذ منها للجزائر حاضرة الأيالة أموال عظيمة[21].

و إن اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ دخول الأتراك مدينة قسنطينة وطريقة استقرارهم بها، و إن كانت رواياتهم قليلة و متضاربة حول المدينة، وكيف انتقل ولاء أهلها من بني حفص إلى العثمانيين؟ و متى كان ذلك؟[22]، فإن الأكيد أن الشيخ عبد القادر الراشدي قضى سنوات عمره كلها، من الولادة إلى الوفاة و الجزائر تابعة للحكم العثماني.

و قد عايش فترة حكم صالح باي لقسنطينة، الذي حسنت أيامه و بلغ ما لم يبلغه من هو أكبر منه من ولاة الجزائر، و جمع ما لم يجمعه غيره، و بنى جامع سيدي الكتاني، و غرس البساتين المعتبرة، و كانت له اليد الطولى على صاحب تونس و غيره، و بنى القنطرة، و عمر الوطن و سعدت الناس في دولته، و دام حكمه نحو اثنين و عشرين سنة[23]، حتى أن ثروات صالح باي بلغت من الضخامة ما جعلها تماثل ودائع خزينة الجزائر[24].

و مادام أن الراشدي توفي في عام 1194هـ/1780م، في عهد صالح باي، فإنه – و إن كنا نجهل تاريخ ولادته – يكون قد عاصر ولاة آخرين حكموا قسنطينة قبل صالح باي.

المنارة للاستشارات

فلو افترضنا أنه عاش ثمانين عاما؛ فإنه يكون ولد في عهد أحمد خوجة باي بن فرحات؛ الذي تولى أمر البايليك عام 1112هـ/1700م، و بقي بايا إلى غاية عام 1114هـ/1703م، حيث خلفه إبراهيم باي العلج؛ الذي عرف عنه أخذ أموال الناس بالباطل، و استمر إلى غاية عام 1119هـ/1707م، و هو عربي من أهل البلد، و تولى بعده ابنه علي باي عام 1120هـ/1708م، و هو عربي أيضا، و من بعده تولى حسين شاوش عام 1121هـ/1708م، و جاء بعده عبد الرحمن باي بن فرحات عام 1122هـ/1709م، و ما لبث حتى خلفه حسين دنفزلي باي عام 1122هـ/1710م، الذي تولى بعده علي باي بن صالح عام 1122هـ/1710م[25].

و هي عشرة سنوات مليئة بالاضطرابات و عدم الاستقرار، تولى فيها مقاليد بايليك قسنطينة سبع بايات، بل إنه في عام واحد؛ أي في عام 1122هـ اعتلى منصب الباي ثلاث حكام، مما يدل على أن المقاطعة مرت بظروف صعبة، و الأكيد أنها انعكست سلبا على الحياة العلمية في عاصمة البايليكو في أطرافه، مع العلم أن هذا القسم من أيالة الجزائر العثمانية هو الأكبر من حيث المساحة.

ثم تولى بعده مقاليد الحكم في بايليك قسنطينة قليان حسين باي بوكمية عام 1125هـ/1713م؛ الذي طالت ولايته، و من بعده رجع الأمر لحسين باي المدعو بوحنك التركي، الذي كانت سيرته بسيرة الباي الذي قبله، و مهد الله تعالى زمانه الوطن و البلاد و أصلح الله به الرعية و البلاد، و من بعده تولى حسن باي زرق عينو عام 1167هـ/1754م، و في مدة ولايته، التي دامت حوالي ثلاث سنوات، زاد في ترتيب الوظائف، و تصدى لأمور البلاد و شرع فيما يصلح بأحوال العباد، و سن القوانين، ثم صار يخرج لأجل استخلاص حقوق البايليك، و لازال بهذه السيرة موصوف، و بكمال العدل و الخير مألوف، و من هذا الحين ظهرت قوة الترك في قسنطينة و تولى من بعده

المنارة للاستشارات

أحمد باي القلي عام 1170هـ/ 1756م، قبل أن تؤول الإمارة لصالح باي عام 1185هـ/1771م، و استمر في منصبه قرابة ربع قرن[26].

و هي مرحلة استقرار و نشاط، لكن هذا لم يمنع من ظهور بعض المنغصات، التي لم تقف حجر عثرة أمام العلماء بما فيهم الشيخ عبد القادر الراشدي الذي كانت له المكانة الرفيعة عند أولي الأمر، ليبدع في علم التفسير مما جلب له العديد من المتاعب و الخصومات.

على العموم فإنهبالرغم من أن هناك بعض البايات من أصل عربي، فإن مقاليد السلطة في قسنطينة في العهد العثماني كانت بيد فئة محدودة في العدد، دخل ضمنها أهل المدينة الأصليين و أعيانها في الوظائف المدنية أو العلمية، أما الوظائف المخزنية و السياسية فقد نافسهم فيها ذووا الأصل التركي العثماني إما نسبا أو انتسابا، و قد التقت العائلات المخزنية مثل مناماني و كوجك علي وقيصارليو رضوان خوجة، بالعائلات البَلْدِيَّة (سكان المدن أو الحضرية) مثل ابن نعمون و ابن باديس و ابن المسبح و ابن الفقون و ابن جلول و غيرها لتوطد عناصر الوجاهة، فجمعت بين العلم و الملكية العقارية و الوظائف الدينية والمدنية[27].

و في ظل الوضع السياسي الذي عاشته قسنطينة، فإنها كذلك كانت غير خالية من العلماء، حسب تعبير صاحب نزهة الأنظار؛ الذي أضاف قائلا:".. و لا من الفضلاء و الصلحاء، غير أنها سريعة بأهل الصلاح، فمن ظهر فيها بالقبول و الفضل إلا أسرعت بهلاكه، فيقبض ساعتئذ، و هذا معلوم عند أهلها، إما لإساءة ظن فلا ينتفعون بمن ظهر فيهم، أو لأنها كثيرة الملذات، فقل فيها أهل الفضل من أصحاب الخيرات، و إنما يظهر أهل الخير و استمرارهم للنفع في محل ضيق المعيشة، كثير المحن، قليل الإحسان و الامتنان، و مواهب الإله و إرادته إنما تكون لمن يستحقها، و من هو أهل، لا و ليس ذلك إلا للفقراء، فما ضاق محل بالمعيشة إلا ظهر فيها الفضل و

المنارة للاستشارات

العناية، و قد جرت عادة الله تعالى بهذا، و ما كثر رزق و اتسع بمحل إلا كثر فيه الافتخار و التجبر و العناد، و قل الصلاح والزهد و العبادة"[28].

ثم نعتها بأنها وطن يقل فيه الحلال و يكثر فيه الحرام و المتشابه، قبل أن يقول :"نعم هي بلدة طيبة يستحليها الناظر، و يستحسنها المقيم و المسافر، فليست كثيرة الصفاء، و لا بعيدة الجفاء، و لا قوية الوفاء، عامتها بين اعتقاد وانتقاد، و خاصتها بين رغبة و غبطة و حسد و عناد، لا يتم الفضل فيها، و لا ينقص الحال و لا الكمال عند أهل الفضل منها، فالسب فيها كثير و القبح و اللعنة جار في أسواقها، و لا يسكن اضطرامها، أزال الله منهم ذلك و محى فيهم ما هنالك"[29].

لذلك كان دور العلماء و أهل الفضل و الصلاح فيها مضاعف الجهد، و من هؤلاء الشيخ عبد القادر الراشدي؛ الذي كان دوره كقاضي و مفتي يحتم عليه مواجهة كل مظاهر السوء، و إصدار الأحكام المناسبة ضد مرتكبيها، و إسقاط النصوص على واقع الناس،و تبشير المحسنين بالأجر و الثواب و النعيم، و إنذار المسيئين بسوء العاقبة و العذاب الأليم، فكانت دروسه في التفسير و في غيره، وكذا تواليفه تحاكي الحياة اليومية.

في هذه الأثناء غالبا ما اتسمت علاقة العلماء بالسلطة بطابع جدلي، حاولوا من خلاله الجمع بين النصيحةو الدعم، و بين التمنع و النقد، علما أنهم شكلوا في قسنطينة فئة متميزة و متماسكة، مما جعلهم يصمدون أمام ضربات الحكام إلى غاية الحكم الاستعماري الفرنسي[30].

4- خصوماته و نزاعاته مع علماء عصره:

الشيخ عبد القادر الراشدي عالم مجتهد، له آراء اصطدمت بطبيعة الكثير من علماء الدين في عصره، و وقف ضد ما كان سائدا آنذاك من جمود فكري، وما تعرض له من محن يدل على أنه خرج في تفسيره للقرآن الكريم عن المألوف، وابتعاده عن التقيد بما نقل عن المتقدمين في هذا الباب.

المنارة للاستشارات

و قد أوردنا في ما تقدم من كلام الراشدي ما يدل على ذلك، نقصد هنا ما جاء في بعض مؤلفاته: ".. ترد دعوى الاعتياد، و إرادة رغم أنف المعاندين، وإشادة حتم حتف الجاحدين، أن حملهم على ما هم فيه شدة الحسد، و قلة نفاق ما بسوقهم من الكسد و ما دَرَوا أن اعتراضهم إنما هو على رب الناس، لأنه قاسم ما بينهم من خير أو من بأس، لا يسأل عما يفعل و هم يسألون، أخذهم عز وجل بما كانوا يفعلون .. "[31].

و من ذلك المخاصمة العظيمة التي وقعت بينه و بين طلبة في قسنطينة، وقد رموه بالتجسيم، بل إن البعض منهم كفره و من الإسلام أخرجه، حيث تنازلا في قوله تعالى:(**لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**)[32]، فقال الراشدي في اليد: إنها حقيقة، و مع ذلك إنها ليست جارحة و لا جسما؛ بل يستحيل ذلك، لأنه يؤدي إلى الحدوث والإمكان، و قدح في التأويل بالقدرة أو صفة زائدة يخلق الله بها الأشراف من الخلق، لأن التأويل محوج إلى الدليل و الخروج من الحقيقة إلى نوع من المجاز، فلم يكترث بالتأويل، إذ البقاء مع الحقيقة هو الأصل، و إن التأويل و إن كان صحيحا ففيه ابتغاء الفتنة، و إنما تنتفي على التسليم لصحة التأويل، و إن كان في علم الله كذلك لأن المصيب في العقائد واحد، فقد اتفق أهل السنة قاطبة على نفي الجارحة و ما يؤدي إلى الإمكان و الحدوث و التجسيم، فمنهم من قال أن له يدا حقيقة، فالعلم بها موكل إلى الله تعالى، فلا يستلزم هذا التجسيم لأن الأصل في الإطلاق الحقيقة، فكيف يلزم به مع أنه نفى التجسيم الذي يستلزم ما لا يليق به جل جلاله، فأنَّى أو كيف أو متى يلزمه[33].

فكان ذلك تحامل منهم عليه، سببه الحسد و البغض و التنافس، و إنما رموه بذلك لما علموا منه من كونه طويل اللسان عليهم بالعلم، بل و قد نسبوا إليه كثرة الرشوة، و غير ذلك مما لا يناسبه، و قد بالغوا في تضليله إلى أن أرادوا الفتك به عند السلطان، فسلم و نجا من شرهم[34]، لتعاطف صالح باي معه[35]، وكادوا له حتى عُزِل عن القضاء[36].

المنارة للاستشارات

5 – الشيخ عبد القادر الراشدي مفسرا:

قال الورتلاني في رحلته عن الراشدي:"قاضي الجماعة النحوي المتكلم الأصولي المنطقي البياني المحدث المفسر، صاحب الأبحاث الشريفة و الفوائد المنيفة سيدي عبد القادر الراشدي"[37]، و وصفه في موضع آخر من رحلته بالعلامة المحقق و الفهامة المدقق[38]،و لا يكون كذلك إلا من تبحر في شتى علوم الشريعة كتفسير القرآن الكريم، و شرح السنة النبوية الشريفة.

و قد تناول عبد القادر الراشدي التفسير تدريسا، حيث كان يعقد مجالسا لذلك، غير أن ما لا يمكن أن نجزم بمعرفته، هل هذه المجالس كانت للتدريس أم مجالس اجتماعية يحضرها الباي و العلماء؟ و المعروف أن الراشدي كان قد تولى الإفتاء و التدريس بجامع سيدي الكتاني الحنفي و مدرسته، كما أن له بعض التآليف، و لكننا لا نعرف ما إذا كان تفسيره قد جمع في كتاب، فلعله لم يكن يتناول التفسير بصورة منتظمة،و إنما كان يتناول بعض الآيات في المناسبات المعينة و يعرضها و يحللها[39].

و على الرغم أن للراشدي "تقييد في صفحة واحدة على قول الله تعالى:(**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌفَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَاخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ**)[40]"[41]،فإنه لم يصل إلينا تفسيرا كاملا له مكتوب، غير أن هذا لا يحجب جهوده و اسهاماته في تفسير الكتاب العزيز، و مما يدل على ذلك ما نقل صاحب تعريف الخلف برجال السلف عن الشيخ محمود كحول القسنطيني أنه قال عن الراشدي:"و له تعليقات جمة، و فتاوى و مسائل ابتكارية جليلة، و تفسير عدة آيات وقعت بمجالس صالح باي"[42].

و من ذلك مجلس في تفسير قوله تعالى:(**وَكُلَّإِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ**)[43]، جاء في أوله:

"حمدا في الحال و المآل الكبير المتعال، و صلاة و سلاما الارسال وصحابته و الآل و بعد:

المنارة للاستشارات

فيقول الراجي عفو القادر الراشدي عبد القادر، و قد أمر من وجبت طاعته، وسعد فينا وقته و ساعته، و كنا جماعة متبركين بمجلسهو مستضئين بنور شمسه، أن يتكلم كل منا في الآية التي تذكر بما اقتضاه فهمه و سعة فقهه و علمه، فلم يكن لنا يد مما قال، و تناول كل لهذا المنوال، كيف و هو الإمام العامل و الهمام الكامل المحوط بالاسما و الآلي، سيدنا صالح باي أصلح الله له الأوقات، و باعد عنه جميع الآفات، إنه جواد كريم رؤوف رحيم، و إذ آن لنا الشروع في المقصود بعون المالك المعبود، فنرغب مجيب السؤال أن يوفقنا فنقول قال الله تعالى، و هو أصدق القائلين و مجيب السائلين، و كل إنسان بالغ ذكر أو أنثى"[44]، ثم شرع في تفسير الآية الكريمة.

و حين نرجع إلى قصيدته التي نظمها في الرد على أضداده في قضية المتشابه، نجد أن الكثير من أبياتها تشير إلى بعض الآيات القرآنية، التي يستنبط منها الأحكام و مناقشة خصومه بها، حتى يثبت لهم أنه على حق و هم على باطل، بالإضافة إلى تصريحه بمنهجه في أخذ أمور العقيدة بالنقل، و كذلك يفعل في تفسيره للقرآن الكريم.

ففي البيتين الأولين اللذَيْن مرا بنا، يقول خبرا عني المؤول للمتشابه بلا دليل له سوى أوهام عقله، أني كافر بما قضته العقول؛ أي أوهامها لأنها توهمت أن ما ورد من يد و عين و ما بقي مثل ما للآدمي حصر لها بهذا الوهم في الجارحة، مع أن قوله تعالى:(**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**)[45] كفيل بمنعه، فكيف يصح الحصر فيها حتى يحتاج إلى التأويل، و يقدم فيه دليل العقل على النقل، فالحق البقاء مع الظاهر و تفويض علم حقيقته إلى الله تعالى.

أما قوله:

لَتَقُولَانِ إِنَّ ذَا أَكْثَرِ النَّاسِ عَلَيْهِ وَ أَنَّهُ لَعُدُولُ
شَرَعُوا لَهُم مِنَ الدِّينِ مَا لَمْيَأْذَن اللهُ أَوْ يَقُلْهُ رَسُولُ
فَاحْذَرَاهُم وَ مَنْ تَلَاهُم إِذَا قِيلَاتَّبِعُوا مُنَزِّلُ الكِتَابَ يَقُولُ

المنارة للاستشارات

بَلْ هُنَا نَتَّبِعُ الْآبَاءَ وَ الْأَشْيَاخَ كَمَا قَالَ كَافِرٌ وَ ضَلُولُ[46]

أي أتقولون ذلك و الحال أنه عدول عن طريق الحق الآتي به الكتاب والسنة، و قد أشار هنا إلى قوله تعالى:(**وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ**)[47]، لذا قال في البيت التالي شرعوا لهم من الدين ما هو مخالف لما جاء به الوحي، مقتبسا البيت من الآية الكريمة:(**شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِمَا لَمْ يَأذَن بِهِ اللَّهُ**)[48]، و إنما كان ذلك لإيجابهم الإيمان بما قضت به العقول، و منعهم الأخذ بما دل عليه النقل، قبل أن ينتقد تركهم اتباع طريق الهدى و ما جاء به الوحي، و سيرهم على خطى أصحاب الضلال والهوى؛ و هذه إشارة صريحة لقوله تعالى:(**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِآبَاءنَا**)[49]،و قوله سبحانه و تعالى:(**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَاللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَصُدُودًا**)[50]، و (**وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِلِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ**)[51]،فهذه القصيدة تدل على سعة علم عبد القادر الراشدي، و على أنه مفسر بارع.

و نجد أسلوبه في التفسير، و قدرته العجيبة على استنباط الأحكام من القرآن الكريم في كتابه الموسوم بـ: "تحفة الإخوان في تحريم الدخان"،و من ذلك قوله في:(**يُرْسَلُ عَلَيْكُمَاشُوَاظٌ**)[52]، أي دخان[53]، (**وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ**)[54]، قال الراشدي: (وظل)، أي متراكم، (من يحموم)، يعني دخانا أسود، لا بارد و لا كريم، و الانذار به و التحذير منه آية الحرمة[55].

كما أنه يرجع إلى مفسرين قبله، و ينقل عنهم، أو يأخذ ما نصت عليه الأحاديث النبوية في تفسير كم من الآيات، و هذا ما يسمى بالتفسير بالأثر، و من ذلك؛ قال عبد القادر الراشدي: قال ابن العربي في تفسير قوله تعالى:(**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَاتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ**)[56]، قال حذيفة رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم: (و ما الدخان يا رسول الله؟ قال: دخان يملأ ما بين المشرق و المغرب أربعين ليلة و يوما، أما المؤمن فيصير له كهيئة

المنارة للاستشارات

الزكام، و أما الكافر فيصير بمنزلة السكران يخرج من منخريه و أذنيه و عينيه و دبره)[57].

خاتمة:

الشيخ عبد القادر الراشدي هو أحد علماء الجزائر الذين ساهموا في خدمة أشرف و أعظم و خير كتاب؛ القرآن العظيم، فاستحق بفضل تفانيه في التفسير أن يسجل اسمه بأحرف من نور ضمن قائمة طويلة من رجال هذه البلاد المعطاءة عبر مراحل تاريخها المشرق.

فالراشدي يمثل بحق النموذج الصادق للعالم الجزائري المجدد في علم التفسير، فهو بالرغم من الضغوط و المحن و المكائد التي تعرض لها، لم يستسلم للقيود التي وضعت في عصره لكل من أراد الخوض في العلوم الشرعية، فتحرر من التقليد والاكتفاء بالنقل من التفاسير التي سبقته، فاعتمد بالإضافة إلى التفسير بالأثر إلى التفسير بالرأي، فأبدع في ذلك فكان جهده في هذا الجانب يحمل بين ثناياه التجديد و الابداع من جهة، و الاتباع لا الابتداع من جهة أخرى.

لقد ساهم الشيخ عبد القادر الراشدي، في فترة ما من تاريخ بلاده، في علم التفسير فكان حلقة ناصعة في سلسلة بدأت قبله و استمرت بعده، فخلد اسمه ضمن قائمة طويلة بذلت كل ما لديها في سبيل إثراء تراث أمتها، كيف لا يكون كذلك، و هو ابن مقاطعة قسنطينة التي توصف عاصمتها، عاصمة الشرق الجزائري، توصف بمدينة العلم و العلماء فساهمت بذلك كغيرها من جهات الوطن في رفع راية الجزائر المضيئة، و أكدت انتماء هذا الشعب الأصيل لأمة هي خير أمة أخرجت للناس مثلما نص على ذلك القرآن العظيم؛ الذي ساهم الراشدي بخدمته تفسيرا و تدريسا فجزاه الله عن ما قدم كل خير.

المنارة للاستشارات

الهوامش:

[1] سورة الحجر، الآية: 9

[2] أبي القاسم محمد الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، درا و تح: خير الدين شترة، الجزائر، دار كردادة للنشر و التوزيع، 2012، ج2، ص220.

[3] محمد مرتضى الزبيدي، المعجم المختص، لبنان، بيروت، دار البشائر الإسلامية للطباعة و النشر والتوزيع، 2006، ص431، 432.

[4] جاء في تحفة الإخوان في تحريم الدخان التي ألفها الراشدي ما يدل على أنه مالكي؛ و من ذلك قوله: وصح أن شم الدخان مفسد عندنا بالوصول إلى الحلق، و عند الحنفية لا بد من وصوله إلى الجوف"، بينما نسبه محمد المهدي شغيب للمذهب الحنفي حين تحدث عن تنظيم الأوقاف في عهد صالح باي، انظر: عبد القادر الراشدي القسنطيني، تحفة الإخوان في تحريم الدخان، دراسة و تحقيق: عبد الله حمادي، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1997، ص138، و محمد المهدي بن علي شغيب، أم الحواضر في الماضي و الحاضر(تاريخ مدينة قسنطينة)،مطبعة البعث، قسنطينة، 1985، ص 240.

[5] محمد الحفناوي، المرجع السابق، ج1، ص663، 664.

[6] انظر: سليمان الصيد، نفح الأزهار عما في قسنطينة من الأخبار، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1994، ص35، و محمد المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص240.

[7] سليمان الصيد، المرجع نفسه، ص54.

[8] محمد الحفناوي، المرجع السابق، ج2، ص220.

[9] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص35.

[10] و هو سجل صالح باي للأوقاف؛ الذي طبع بدار مدار يونيفار سيتي براس سنة 2013، من تقديم وتحقيق أ . د: فاطمة الزهراءقشي.

[11] محمد المهدي بن علي شغيب، المرجع السابق، ص240.

[12] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص35.

[13] أوجين فايسات، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي: 1792 - 1837م، تر: صالح نور، الجزائر، دار قرطبة للنشر و التوزيع، 2010، ص30، 31.

[14] أوجين فايسات، المصدر نفسه، ص33.

[15] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص55، 56.

[16] محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص220.

المنارة للاستشارات

[17] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص45.

[18] محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص220، 221.

[19] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص42، 43.

[20] سليمان الصيد، المرجع نفسه، ص53.

[21] الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، 2008، مج2، ص791.

[22] فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، قسنطينة، منشورات ميديا بلوس، 2005، ص29، 30.

[23] أحمد المبارك بن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تح و تق و تع: عبد الله حمادي، قسنطينة، دار الفائز للطباعة و النشر و التوزيع، 2011، ص138.

[24] ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني، الجزائر، البصائر للنشر و التوزيع، 2013، ص141.

[25] محمد الصالح بن العنتري، فريدة منيسة في حال دخول الترك بلد قسنطينة و استيلائهم على أوطانها، مراجعة و تقديمو تعليق: يحي بوعزيز، الجزائر، دار البصائر للنشر و التوزيع، [د.ت]، ص ص(51 - 53).

[26] محمد الصالح بن العنتري، المصدر نفسه، ص ص(54 - 63).

[27] فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص149، 150.

[28] الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق، مج2، ص792، 793.

[29] الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر نفسه، مج2، ص794، 795.

[30] فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص150.

[31] سليمان الصيد، المرجع السابق، ص43.

[32] سورة ص، الآية: 75.

[33] الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر السابق، مج2، ص804، 805.

[34] محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص222.

[35] أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي(1500- 1830)، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998، ج2، ص14.

[36] محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص222.

[37] الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر نفسه، مج2، 798، 799.

[38] الحسين بن محمد الورثيلاني، المصدر نفسه، مج2، ص804.

[39] أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ج2، ص14.

المنارة للاستشارات

[40] سورة الأعراف، الآية: 34.

[41] سليمان الصيد ، المرجع السابق، ص53.

[42] محمد الحفناوي، المصدر السابق، ج2، ص221.

[43] سورة الإسراء، الآية: 13.

[44] سليمان الصيد ، المرجع السابق، ص53، 54.

[45] سورة الشورى، الآية: 11.

[46] سليمان الصيد ، المرجع السابق، ص49.

[47] سورة الأنعام، الآية: 150.

[48] سورة الشورى، الآية: 21.

[49] سورة البقرة، الآية: 170.

[50] سورة النساء، الآية: 61.

[51] سورة النور، الآية: 48.

[52] سورة الرحمن، الآية: 35.

[53] عبد القادر الراشدي القسنطيني، المصدر السابق، ص113.

[54] سورة الواقعة، الآية: 43.

[55] عبد القادر الراشدي القسنطيني، المصدر السابق، ص113.

[56] سورة الدخان، الآية: 10.

[57] عبد القادر الراشدي القسنطيني، المصدر السابق، ص114.

المنارة للاستشارات